الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

قال الإمام الأواب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين في كتابه أصول الإيمان :

باب الإيمان بالقدر

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الانباء: ١٠١] ، وقول الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦] ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القم: ٤٩] .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه «أصول الإيمان»: ((باب الإيمان بالقدر)) ؛ الإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان وركن من أركان الدين وأساس من أسسه العظام ، بل لا إيمان لمن لا يؤمن بالقدر ، لا يؤمن بالله عز وجل من لا يؤمن أن الأمور بقدره جل وعلا . فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان ، ولهذا لما سأل جبريل النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور عن الإيمان قال : «أخبرني عن الإيمان» قال : ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقدر خيره وشره)) ، فذكر عليه الصلاة والسلام أصول الإيمان ستة وعدّها منها الإيمان بالقدر . فالإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان ، ولا ينتظم لعبد إيماناً ولا توحيداً إلا إذا آمن بالقدر ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : «الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيداً» أي نقض تكذيبه بالقدر توحيداً لله عز وجل ، بمعنى أنه لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله عز وجل إلا إذا آمن بالقدر ، ويوضح هذا المعنى الذي قرره ابن عباس رضي الله عنهما قول الإمام أحمد رحمه الله «القدر قدرة الله» ، فالذي يجحد القدر ولا يؤمن به ليس مؤمناً بقدرة الله ، ومن لا يكون مؤمناً بقدرة الله تبارك وتعالى فهو ليس مؤمناً بالله تبارك وتعالى ؛ فينتقض الإيمان وينهدم التوحيد إذا جحد الإنسان القدر أو لم يؤمن بقدر الله تبارك وتعالى . فالإيمان بالقدر أصل عظيم من أصول الإيمان وركن عظيم من أركان الدين ودعامة من دعائمه ، كما قال ابن أبي داود رحمه الله في حائيته المشهورة :

وبالقدر المقدر أيقن فإنه دعامه عقد الدين والدين أفيح

فالإيمان بالقدر دعامه لهذا الدين ، ومن المعلوم أن دعامه الشيء هي أساسه الذي عليه بناؤه وقيامه

والبيت لا يتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد

فالإيمان لا يقوم إلا على أصول عظيمة وأسس متينة ودعائم قوية عليها بناؤه وقيامه ، من هذه الأصول العظام والأسس الكبار: الإيمان بقدر الله تبارك وتعالى ؛ ولهذا عقد الإمام رحمه الله تعالى هذه الترجمة في كتابه الإيمان، مبيّنًا فيها هذا الأصل العظيم ألا وهو الإيمان بالقدر .

والإيمان بالقدر أساسٌ لسعادة الإنسان وفلاحه في الدنيا والآخرة وطمأنينة قلبه وسكون نفسه ، أسعد الناس في الدنيا والآخرة وأهنؤهم عيشًا وأكثرهم طمأنينَةً وسكونًا وقرارًا أهل الإيمان بالقدر ، فالإيمان بالقدر يجلب للعبد الخيرات والمسرات والراحات في الدنيا والآخرة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) ، المؤمن يعلم أن ما وُفق له أو ما ناله من نعمة فهي من الله عز وجل فيحمد المنعم جل وعلا لأنه يسرّها وقدرها وكتبها فيحمده تبارك وتعالى عليها ، وإذا أصيب بمصيبة أو بلاء أو نحو ذلك فإنه يعلم أنه من عند الله ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١] يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم ويصبر ، ولهذا قال: ((ولا يكون ذلك إلا للمؤمن)) ، لأن الإيمان هو الذي يوجد هذه الطمأنينة ويوجد هذه الراحة والقرار والسكون للقلب . فالإيمان بالقدر له آثاره العظيمة على العبد من حيث قوة صلته بالله وتتمام التجائه إليه وكثرة دعائه سبحانه وتعالى وسؤاله والإلحاح عليه ، لأن الأمور بيده وبقضائه وقدره سبحانه ؛ فله فوائد عظيمة وجليلة جدًا ، والمصنف رحمه الله عقد هذه الترجمة ليبين هذا الأصل العظيم من أصول الإيمان .

وينبغي أن يُعلم هنا : أن العبد لا يكون مؤمنًا بالقدر إلا إذا آمن بمراتب القدر التي دل عليها القرآن ودلت عليها سنة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ، فلا يؤمن بالقدر من لا يؤمن بمراتبه المذكورة في القرآن والسنة ، وهي كما بيّن أهل العلم أربعة مراتب :

﴿الأولى﴾: الإيمان بعلم الله تبارك وتعالى الشامل المحيط الذي وسع كل شيء ؛ علمه تبارك وتعالى بما كان وبما سيكون وبما لم يكن لو كان كيف يكون ، وأنه عز وجل أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ووسع كل شيء رحمة وعلما ، وأن علمه تبارك وتعالى محيط بكل شيء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا . فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله ، وأنه سبحانه وتعالى علم ما كان وعلم ما سيكون وأحاط بعلمه بكل شيء في الأزل علمًا محيطًا بكل شيء ، كل ما وقع وكل ما

يقع أحاط به علم الله سبحانه وتعالى في الأزل ، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله عز وجل وأنه علم محيط وسع كل شيء .

﴿ الأمر الثاني أو المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله كتب ما هو كائن من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة؛ كتبه جل وعلا في اللوح المحفوظ ، وهذه الكتابة لمقادير الخلائق كانت قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، الآن الذين بدأوا يتوافدون على هذه البلاد الطيبة لأداء فريضة الحج والعمرة وزيارة مسجد النبي عليه الصلاة والسلام هذا أمر كتبه الله عز وجل لهم قبل خلق السماوات والأرض بخمسين الف سنة كتب ذلك، وكل ما يكون كُتِبَ وسيأتي الدليل عند المصنف رحمه الله من السنة ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) كل شيء كُتِبَ ، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأن الله عز وجل كتب كل شيء ، كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة ؛ من حركة ، من سكون ، من قيام ، من قعود ، من نوم ، من طاعة ، من فتور ، من بر أو إحسان أو عصيان أو غير ذلك ، كل ذلك كُتِبَ ، كتبه الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابِ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠] ، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ (٥٢) وكلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الفر: ٥٢-٥٣] ، فكل شيء كُتِبَ كتبه الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ . فهذه المرتبة الثانية؛ فمن لا يؤمن بالكتابة لا يؤمن بالقدر ، لأن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بالكتابة ، كما أن من الإيمان بالقدر أن نؤمن بعلم الله سبحانه وتعالى الذي أحاط بكل شيء .

﴿ المرتبة الثالثة : أن نؤمن بمشيئة الله سبحانه وتعالى النافذة وقدرته سبحانه وتعالى الشاملة ، وأنه جل وعلا على كل شيء قدير وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن كل شيء يقع إنما يقع بمشيئته وإذنه جل وعلا ، قال تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] ، فالأمور لا يمكن أن تكون إلا بمشيئة الله تبارك وتعالى ، فمشيئته نافذة ، ومعنى مشيئته نافذة: أي أن أي شيء يشاءه لا بد أن ينفذ ، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه سبحانه وتعالى ، فأى شيء يشاءه سبحانه وتعالى لا بد أن ينفذ وأن يقع طبقا لما شاء ، لأن مشيئته سبحانه وتعالى نافذة وقدرته جل وعز شاملة ، فهو قدير على كل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، فمن الإيمان بالقدر الإيمان بالمشيئة النافذة والقدرة الشاملة وأن ما شاء الله عز وجل كان وما لم يشأ لم يكن ، وفي هذا يقول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في أبيات له جميلة:

مَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ	وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ	وَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْقَتَى وَالْمُسِينُ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ، وَهَذَا حَذَلْتُ	وهذا أعنت ، وذًا لم تُعِنُّ

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ ، وَمِنْهُمْ سَعِيدٌ وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ ، وَمِنْهُمْ حَسَنٌ

كل ذلك بتقدير الله سبحانه وتعالى وكل ذلك بمشيئته سبحانه وتعالى النافذة ، «ما شئت كان وإن لم أشأ» أي أي شيء تشاءه يا الله يكون ويقع وإن لم أشأه أنا ، والشيء الذي أشأه أنا أيها العبد إن لم تشأه يا الله لا يكون، وهذا هو معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] . إذا من إيماننا بالقدر أن نؤمن بمشيئة الله تبارك وتعالى النافذة وبقدرته تبارك وتعالى الشاملة، ومن لا يؤمن بهذا لا يؤمن بالقدر .

المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر : الإيمان بأن الله خالق كل شيء ؛ خالق العباد وخالق أيضا حركات العباد وسكناتهم وأعمالهم ، فالعباد مخلوقون وأيضا أعمالهم مخلوقة لله عز وجل ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، أي أنه تبارك وتعالى الخالق للعباد والخالق أيضا لأعمال العباد ، فالكل مخلوق لله تبارك وتعالى ، العباد في أشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم وصورهم مخلوقين لله «فمنهم قبيح ومنهم حسن» ، وأعمال العباد من أعمال بر وإحسان أو أعمال فسق وعصيان كل ذلك مخلوق لله تبارك وتعالى ، فنؤمن بأن الله خالق كل شيء، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] ، وقال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، فمن الإيمان بالقدر أن نؤمن بأنه جل وعلا خالق كل شيء.

فهذه مراتب أربعة للقدر جمعها أحدهم في بيت فقال :

علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجادٌ وتكوين

فهذه المراتب الأربعة التي لا يؤمن بالقدر من لا يكون مؤمناً بها ؛ العلم ، والكتابة ، والمشيئة ، والإيجاد . «العلم»: أي علم الله المحيط بكل شيء ، و«الكتابة»: أي كتابة الله عز وجل لمقادير الخلائق ، و«المشيئة»: أي مشيئته تبارك وتعالى النافذة ، و«الخلق»: أي كونه تبارك وتعالى خالق كل شيء . وهذا كما تلاحظ كله من الإيمان بالله ؛ إيمانٌ بعلمه، إيمانٌ بأنه كتب كل شيء ، إيمانٌ بمشيئته بقدرته ، إيمانٌ بأنه الخالق جل وعلا ، فكيف يكون مؤمناً بالله من لا يؤمن بهذه المراتب للإيمان بالقدر !!

وبهذا البيان نعلم أن التوحيد كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لا ينتظم ولا يستقيم ولا يصلح إلا إذا آمن العبد بأقدار الله تبارك وتعالى وأن الأمور كلها بقدر الله جل وعلا ، وهذا الأصل العظيم من أصول الإيمان وردت عليه دلائل كثيرة تدل على وجوب الإيمان بالقدر وتقرر أن الأمور كلها بقدر الله سبحانه وتعالى ومشيئته سبحانه وهي كثيرة جداً في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أورد المصنف رحمه الله تعالى طرفاً من هذه الأدلة .

فبدأ أولاً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الانباء: ١٠١] عنها: أي عن النار التي ذكرت في الآية التي قبل هذه الآية ، فهم عنها مبعدون أي: لا يسمعون حسيستها ولا يقتربون منها ولا يدخلونها بل ينجيهم الله تبارك وتعالى منها بمنه وكرمه .

والشاهد من الآية للترجمة: قوله تبارك وتعالى ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ ؛ أي فيما علمه الله سبحانه وتعالى في الأزل وكتبه تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ ، فمن علم الله سبحانه وتعالى في الأزل وكتب في اللوح المحفوظ أن لا يدخل النار لا يدخلها ، لأن أهل النار كتب الله عز وجل في اللوح المحفوظ من هم وأعمالهم وما يقومون به ، وأهل الجنة أيضا كتب الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ من هم وأعمالهم وما يقومون به ، فالذين سبق لهم من الله عز وجل الحسنى فيما علمه سبحانه وتعالى في الأزل وفيما كتب تبارك وتعالى في اللوح المحفوظ هؤلاء مبعدون عن النار لا يدخلونها وينجيهم الله تبارك وتعالى منها ، لأنهم سبق لهم من الله تبارك وتعالى الحسنى .

وهنا يتبين لك الفائدة العظيمة التي يربحها المؤمن عندما يكون مؤمنا بالقدر وأن أهل الجنة كتبوا وأن أهل النار أيضا كتبوا يظهر لك هنا الفائدة العظيمة ألا وهي : قوة التجاء المؤمن إلى الله سبحانه وتعالى وانطراحه بين يديه جل وعلا رجاءً وطمعاً ورغباً ورهباً في مننه وفضله وجوده وإحسانه دعاءً ورجاءً وسؤالاً وإلحاحاً لأن الأمر كله بيد الله سبحانه وتعالى . عندما يقرأ المسلم هذه الآية متأملاً لمعناها حقاً وصدقاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قلبه يمتلأ طمعاً في أن يكون من هؤلاء الذين سبق لهم الحسنى من الله تبارك وتعالى ، يرجو ذلك ويطمع ويسأل الله عز وجل أن يجعلهم من هؤلاء وأن يعيده من سبيل أهل الشقاء والهلاك ، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ .

ثم أورد قول الله جل وعلا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ؛ وهذا أيضا دليل من الأدلة الواضحة والصریحة على أن الأمور كلها بقدر، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ وهذا فيه بيان أن كل أمر يقع ويوجد على مر العصور واختلاف الأيام كل ذلك قدر قدره الله سبحانه وتعالى وكتبه جل وعلا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ، ليست الأمور تقع هكذا بدون سابق علم من الله عز وجل وبدون سابق كتابة أو تقدير ، ليست الأمور تقع على هذا الوصف بل الأمور كلها بقدر ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ، قال الله عز وجل في قصة موسى: ﴿ثُمَّ جِئْتَنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠] ليس مجيء موسى هكذا وإنما جاء لكون الله سبحانه وتعالى قدر ذلك وكتبه سبحانه وتعالى .

قال: وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفوات: ٩٦] وهذا فيه أن الأمور كلها خلقٌ لله ؛ العباد بأشخاصهم وذواتهم وهيئاتهم ، وأيضا في أعمالهم من بر وفجور ، وطاعة وعصيان ، وإيمان وكفر وإيمان وغير ذلك كل ذلك مخلوق لله ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وخلق ما تعملون ، فالله عز وجل خالق كل شيء .

ثم ختم أدلة القرآن بقول الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فكل شيء خلقه الله عز وجل وأوجده أوجده بقدر ، قدره سبحانه وتعالى وكتبه جل وعلا في اللوح المحفوظ ثم خلقه وأوجده كما قدره وكما كتبه سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ.

فهذه بعض الأدلة من القرآن الكريم على الإيمان بالقدر ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١-٣] فالأمور كلها بقدره تبارك وتعالى. ثم بعد ذلك شرع رحمه الله تعالى في ذكر الأدلة على الإيمان بالقدر من السنة.

قال رحمه الله تعالى :

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء)).

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)) ؛ إن الله كتب مقادير الخلائق ، وهنا ينبغي أن تفهم قوله «مقادير الخلائق» أي: الأمور التي قدر للخلائق أن يفعلوها وأن تقع منهم ، فمقادير الخلائق كتبها الله سبحانه وتعالى في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة . وقوله «مقادير الخلائق» شامل لكل أمر قدر للخلائق أفراد وجماعات أن يقع منهم ، فكل ما يفعله الخلائق قدر عليهم وكتب في اللوح المحفوظ أيًا كان حتى ولو دق الأمر ولو كان من الأمور الصغيرة أو الأمور التي لا يأبه بها الناس ، فكل شيء يقع من الإنسان كتب وقدر ؛ ولهذا انظر إلى فقه الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب ، جاء عن الصحابي الجليل رضي الله عنه عبد الله بن عباس أنه قال : «كل شيء بقدر ، حتى وضعك كفك على ذنك هكذا بقدر» أي: أي شيء يقع من الإنسان قدر كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

تبارك الله رب العالمين الذي وسع كل شيء علما والذي وسعت قدرته كل شيء ولا يعجزه شيء تبارك وتعالى ، وكيف يؤمن بالله من يجحد هذه الحقائق العظيمة والأصول الكبار التي دل عليها كتاب الله ودلت عليها سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه !!

قال: ((إن الله كتب مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء)) وهذا فيه إثبات العرش والإيمان به وأنه مخلوق من مخلوقات الله تبارك وتعالى العظيمة، بل هو أكبر المخلوقات وأعظمها وأوسعها، والله عز وجل خلقه من العدم وأوجده بعد أن لم يكن ، واستوى عليه تبارك وتعالى استواء يليق بجلاله وكماله كما أخبر بذلك عن نفسه في آيات في القرآن ؛ منها قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥٠] قوله جل وعلا: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤] ، فنؤمن بالعرش ووجوده ونؤمن باستواء الله تبارك وتعالى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته سبحانه وتعالى .

الشاهد هنا : الإيمان بالكتابة والتقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، والله سبحانه وتعالى في حكمته بهذه المخلوقات وعموم الكائنات أنه قدر كل ما هو كائن منها تقديراً عاماً شاملاً قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم بعد هذا التقدير العام الشامل تأتي تقديرات أخرى مندرجة وداخلة في هذا التقدير العام ، وسيدكر المصنف رحمه الله تعالى تلك التقديرات التي هي داخلية في هذا التقدير العام؛ كالتقدير الذي قدره الله سبحانه وتعالى على الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ اللَّسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، فهذا تقدير وسيأتي دليله ، وأيضا التقدير العمري الذي يتعلق بعمر كل إنسان سيأتي دليله عند المصنف ، وأيضا التقدير الحولي أو السنوي في ليلة القدر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] ، وأيضا التقدير اليومي ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] فهذه التقديرات كلها داخلية ومندرجة في التقدير العام ، فهي تقديرات من بعد التقدير العام الذي قدره الله سبحانه وتعالى وكتبه قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال رحمه الله :

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ما منكم إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) قالوا: يا رسول الله افلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)) ثم قرأ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦)

فَسُنِّيَتْهُ لِلسَّرِيِّ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَعْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسُنِّيَتْهُ لِّلْعُسْرَى ﴿[الليل: ٥-١٠]﴾
متفق عليه .

ثم أورد رحمه الله تعالى حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ما منكم إلا وقد كتبت مقعده من النار ومقعده من الجنة)) ؛ وهذا هو موضع الشاهد من الحديث للترجمة أن المقادير كتبت ، والتقدير هنا مثل سابقه؛ التقدير العام الذي كان قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وأن رب العالمين جل وعلا كتب مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ قبل خلقه السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، فقوله هنا في حديث علي رضي الله عنه ((وقد كتبت مقعده)) أي كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؛ فهذا هو التقدير العام وهو نظير ما دل عليه الحديث السابق حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

قال: ((ما منكم من أحد)) وهذا أيضا يفيد العموم وأنه لا يشذ أحد ولا يند ، فكل فرد من أفراد الناس كل عمل من أعماله كتب في اللوح المحفوظ وكتب هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار ، كل فرد من أفراد الناس كتب أمره وحاله وأعماله كل ذلك كتب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ((ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة)) .

هنا عندما يسمع المؤمن هذه الأدلة البينة في باب القدر وأن الأمور قُدرت وكتبت وكتب مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار كتبت هل هو مؤمن أو كافر هل هو بر أو فاجر كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ؛ عندما يسمع المسلم هذه الآيات البيّنات والدلائل الواضحات المقررة للقدر وأن الأمور كتبت وقدرت وقضيت يأتي سؤال في ذهنه وينقدح في باله وهو سؤال كما يقال يفرض نفسه ، سواء طلبه الإنسان أو لم يطلبه نحو سؤال ينقدح في الذهن رأساً عندما يسمع هذه الأدلة؛ أن الأمور بقدر وأن مقعد الإنسان من الجنة أو مقعده من النار كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، عندما يسمع هذه الأدلة لابد أن ينقدح في ذهنه سؤال ، وهذا السؤال الذي أشير إليه طرحه الصحابة رضي الله عنهم في أكثر من مناسبة على النبي صلى الله عليه وسلم عندما سمعوا منه بيان القدر وأن الأمور مكتوبة وأن مقعد الإنسان من الجنة ومقعده من النار كتب ، والسؤال هو: إذا كانت الأمور مقدرة ومكتوبة فيم العمل؟ ((ألا نتكل على القدر؟)) ألا يقول الواحد منا طالما أن الأمور كتبت وقدرت وعُلم مقعد الإنسان من الجنة أو مقعده من النار ليس هناك حاجة للعمل ، بل لا أعمل شيئاً متكلاً على قدرتي السابق وعلى ما كتبه الله تبارك وتعالى علي في اللوح المحفوظ ، ولهذا قال علي رضي الله عنه ، ومثل هذا السؤال جاء عن غير واحد من الصحابة قال علي : ((قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟)) هذا السؤال مبني على التقرير السابق النبي صلى الله

عليه وسلم ذكر لهم أنه ما من أحد إلا علم مقعده من الجنة ومقعده من النار، فقالوا على إثر هذا البيان ((ألا نتكل على كتابنا وندع العمل)) ، جاء في بعض الروايات أنهم قالوا: ((فقيم العمل يا رسول الله؟)) طالما أن الأمر كُتِبَ وقَدِّرَ ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ نتكل أي نعتمد نتكل على كتابنا أي نعتمد على ما كتب علينا ونبني على ذلك وندع العمل ، لا نعمل شيئاً متكلين على كتابنا فما الجواب على هذا السؤال ؟

أجاب النبي عليه الصلاة والسلام بجواب وافٍ كافٍ مع أنه في جملة لا تتجاوز السطر الواحد لكن فيها الغنية والكفاية وفيها الشفاء لمن وفقه الله تبارك وتعالى لفهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم والعمل به ، أما من لم يفهم كلام النبي عليه الصلاة والسلام ولم يستضيئ بضياء هديه صلى الله عليه وسلم فإنه سيتخبط في الظلمات ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠] ، فذكر عليه الصلاة والسلام كلمات أو جملة جمعت الخير كله في هذا الباب ؛ لما قالوا له «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» قال : ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)).

هذا هو الجواب ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وما بعده بيان له ، أما الجواب انتهى هنا ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) هذا هو جواب هذا السؤال في هذه الجملة المختصرة التي جمعت الخير كله . وهذا مما يبين لك أن نبينا عليه الصلاة والسلام أعطي جوامع الكلم ، يقول الكلمات القليلة والأحرف اليسيرة التي تجمع للعباد خير الدنيا والآخرة ، فلما سألوا هذا السؤال الكبير العظيم السؤال الذي ينقدح في الأذهان ويستشكله كثير من الناس أجاب عنه عليه الصلاة والسلام بكلمة لا تبلغ سطرا ، قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)).

وهنا أنه لا يمكن لأحد أن يستفيد من هذه الجملة المختصرة إلا إذا عاها وفهمها وحقق ما دلت عليه كما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم ، قال ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له))؛ فهي كلمة فيها شفاء وفيها بركة وفيها وفاء بهذا المطلب العظيم الجليل .

قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ؛ وهذا الجواب الذي ورد في هذه الجملة بيّن فيه النبي عليه الصلاة والسلام أصلين عظيمين في هذا الباب لا يتحقق للعبد سعادة إلا بتحقيقهما والالتيان بهما على التمام والكمال :

- الأصل الأول مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((اعملوا)) وهذا أمر لهم بالعمل ، «اعملوا» يدخل تحتها: صلوا صوموا تصدقوا قوموا بأعمال البر والإحسان، أيضا يدخل تحتها تجنبوا الحرام ابتعدوا عن الآثام، كل ذلك داخل تحت قوله عليه الصلاة والسلام «اعملوا».

وغير خافٍ عليك أن مثل هذا الخطاب اعملوا أو عمل أو صلي أو صم أو تصدق أو نحو ذلك لا يخاطب به إلا من له مشيئة وإرادة ، أما من لا مشيئة له ولا إرادة لا يقال له عمل ، فالأمر بالعمل لا يكون إلا لمن له مشيئة ، وهذا فيه إثبات المشيئة للعبد والإرادة وهي ثابتة في القرآن ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿التكوير: ٢٨-٢٩﴾ ، فالعبد له مشيئة ، ليس منزوع المشيئة والإرادة وليس

كالورقة في مهب الريح كما يدعيه بعض أهل الضلال والباطل ، فالعبد له مشيئة وله إرادة ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البدر: ١٠] طريق الخير وطريق الشر ، فالذي يمشي إلى طريق الخير مشى إليه بمشيئته وإرادته ومن أيضا مشى إلى طريق الشر مشى إليه بمشيئته وإرادته ، أرايتم الرجل إذا رغب في عمل صالح واتجهت إليه عزيمته كيف أنه يبحث عن وسائله وأسبابه ويسعى في تحقيقه ونيله ، وكذلك والعياذ بالله إذا بُلي بطلب أمر سيء كيف أنه يسعى في تحصيله فالعبد له مشيئته .

فإذًا مما يجب أن نُقر به هنا وأن نؤمن به أن العبد له مشيئة وإرادة يختار بها طريق الخير يختار بها طريق الشر ويعمل بموجب هذه المشيئة ، ولهذا إذا عمل الصالحات يثاب عليها ، وإذا عمل السيئات يعاقب عليها ؛ لأنه فعل ذلك بمشيئته . فإذا قوله عليه الصلاة والسلام ((اعملوا)) هذا يفيد أن العبد له مشيئة وإرادة ولهذا خوطب بهذا الأمر قيل له اعمل ، ويدخل تحت قوله «اعملوا» كما سبق الأمر بالصلاة لأمر بالصيام الأمر بالبر الأمر بالإحسان الأمر بالبعد عن المعاصي والآثام.

وهنا التطبيق العملي لتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام في قوله ((اعملوا)) أن يجاهد الإنسان نفسه على العمل كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، قال جل وعلا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] ، لو لم يكن للإنسان مشيئة هل يقال له اصبر وصابر وربط واتق الله ؟ لا يقال له إذا كان ليس له مشيئة إذا كان حاله وأمره كالورقة في مهب الريح ، فقول «اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله» هذا يدل على أنه له مشيئة ، فإذا العبد هنا مطالب بأن يجاهد نفسه على العمل ويصبر ويرابط ويدفع نفسه إلى الاستقامة وسلوك سبيلها والبعد عن مواطن الآثام والمعاصي ؛ هذا كله مستفاد من قوله ((اعملوا)) وهو الأصل الأول .

● الأصل الثاني مستفاد من قوله عليه الصلاة والسلام ((فكل ميسر لما خلق له)) ؛ وهذا فيه أن الأمور كلها بتقدير الله وبتييسره وبمشيئته وبإذنه وبقدرته جل وعلا ، فكل ميسر لما خلق له : أي لما خلقه الله عز وجل له من كفر أو إيمان ، طاعة أو عصيان ، دخول جنة أو دخول نار ، ((كل ميسر لما خلق له)) أي لما خلقه الله سبحانه وتعالى له . فهذا يستفاد منه أن الأمور كلها بمشيئة الله سبحانه وتعالى وبقدرته جل وعلا وأنه لا يمكن أن يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله عز وجل ، فالمملك ملكه والخلق خلقه جل وعلا ولا يمكن أن يقع في هذا الكون أمرٌ خارج عن مشيئته أو أمرٌ ليس مخلوقا له تبارك وتعالى . ولهذا من لا يؤمن بهذا الأمر ((فكل ميسر لما خلق له)) من لا يؤمن بهذا الأمر ان الأمور كلها بتيسير الله وتقديره فإنه من لازم عدم الإيمان بهذا الأمر ادعاء أن مع الله خالفاً ، ولهذا جاء عن السلف وجاء في حديث يُرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم حسنه بعض أهل العلم «أن القدرية مجوس هذه الأمة» ، لأن من ينفي القدر من لازم نفيه للقدر أن يثبت خالفاً مع الله تبارك

وتعالى ، من لا يؤمن أن الأمور كلها بتيسير الله وتوفيقه وخلقه وإيجاده من لازم ذلك أنه يثبت مع الله خالقا ولهذا قالوا القدرية مجوس هذه الأمة ، المراد بالقدرية: أي نفاة القدر . إذا نستفيد من قوله ((فكل ميسر لما خلق له)) أصل عظيم في هذا الباب ألا وهو: أن الأمور كلها بتقدير الله وتيسيره وعونه وتوفيقه وتأيدته جل وعلا .

فنستفيد من هذا فائدة في الباب ألا وهي : أننا نجاهد نفسنا على الأعمال كما يدل على ذلك شطر هذه الجملة الأول ، وفي الوقت نفسه لا نتكل على أعمالنا ولا نلتفت إليها بل نتوكل على الله سبحانه وتعالى ونطلب مدته وعونه وتوفيقه سبحانه ، قال ((فكل ميسر لما خلق له)) ؛ فيجاهد الإنسان نفسه على الأعمال الصالحة وفي الوقت نفسه يسأل ربه تبارك وتعالى الثبات ، التوفيق ، التأيد ، الهداية ، أن لا يزيغ قلبه ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨] ، «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفة والغنى» ، «اللهم إني أسألك الهدى والسداد» ، «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أُنْبِتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»؛ هذه كلها أحاديث ثابتة عن نبينا عليه الصلاة والسلام ، وكان إذا خرج من بيته قال : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» لأن الأمور بقدره جل وعلا .

فإذا الجواب المسدد في هذا الباب في السؤال الذي طرحه الصحابة ألا نتكل على القدر وندع العمل؟ «ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟» قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) أي جاهد نفسك على الأعمال الصالحات والبعد عن الأعمال السيئات وسل الله التيسير واطلب منه العون والتوفيق كما قال جل وعلا ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ [الفاحة: ٥] كما قال جل وعلا ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مؤد: ١٢٣] كما قال عليه الصلاة والسلام : ((احرص على ما ينفعك واستعن بالله)) ، كما قال عليه الصلاة والسلام : ((اعقلها وتوكل)) فجمع عليه الصلاة والسلام بين هذين الأمرين . وكما قدمت هذا الجواب جواباً وافي في الباب ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وخلاصة الجواب أنه لا بد لكل عبد في هذا الباب لينال السعادة في الدنيا والآخرة أن يحرص على فعل الأسباب ويجاهد نفسه عليه الأسباب الطيبة التي ينال بها رضا الله والفوز بجنته والنجاة من غضبه ، وفي الوقت نفسه يسأل الله عز وجل دوماً وأبداً التوفيق والسداد والهداية والرشاد ، ويتعوذ به جل وعلا من الزيغ والضلال والانحراف .

قال: ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة)) أما من كان من أهل السعادة أي من كان ممن كتب الله عز وجل لهم السعادة في اللوح المحفوظ فسييسره له لعمل أهل السعادة ، وهذا معنى قوله ((فكل ميسر لما خلق له)) : إن خلق للسعادة يُيسر لعملها ، وإن خلق للشقاوة يسر لعملها ، وأما من كان من أهل السعادة فسييسره الله لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره الله لعمل أهل الشقاوة . إذاً السعادة لها أهل

كتبوا في اللوح المحفوظ ، والشقاوة لها أهل كتبوا في اللوح المحفوظ ، ومن كان من أهل السعادة يسره الله لعمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة يسره الله لعمل أهل الشقاوة ؛ وهذا يتطلب من المسلم كما قدمت كما جاء مبينا في الحديث أن يجاهد نفسه على العمل بعمل أهل السعادة ويطلب من الله التيسير ، وبيان ذلك في الآية التي أوردها النبي عليه الصلاة والسلام والآيات قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) ﴾ لاحظ هذه أسباب يفعلها العبد ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ هذا مثل قوله في الحديث ((اعملوا)) ﴿ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [البقره: ١٠٠-١٠١] ، فالعبد يجاهد نفسه على الأعمال الصالحات وفعلها ، ويطلب من الله تبارك وتعالى دوما التيسير والتوفيق .

قال رحمه الله تعالى :

وعن مسلم بن يسار الجهني قال : سئل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذه الآية : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية فقال عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : ((إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون)) ، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال : ((إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار)) رواه مالك والحاكم وقال على شرط مسلم . ورواه أبو داود من وجه آخر عن مسلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة عن عمر .

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن معنى قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ؛ ما معنى هذه الآية وما المراد بها ؟ سئل عمر رضي الله عنه وأرضاه عن معناها فقال : ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها)) أي سئل عن معنى هذه الآية ما المراد بقوله ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ما معنى هذا ؟

فيقول عمر رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : ((إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه)) أي مسح الله سبحانه وتعالى ظهر آدم بيمينه سبحانه وتعالى ((فاستخرج منه ذريرة فقال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للذي مر في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، تقدير من بعد تقدير ، تقدير داخل في التقدير العام وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم، أخرجهم في عالم من العوالم أوجدتهم تبارك وتعالى وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم؟ وقسمهم فريقين فريق في الجنة كما قال هنا ((خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون)) ، ثم أخرج من ظهره ذرية وقال ((خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون)) ؛ فهذا يسميه أهل العلم التقدير الذي كان عندما أخرج ذرية آدم من ظهره وجعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير ، وهذا التقدير داخل في التقدير العام ، داخل في التقدير الذي كتب في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

لما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة هذا الأمر طرحوا السؤال المتقدم ؛ ((قال رجل : يا رسول الله ففيم العمل؟)) قول هذا الرجل ففيم العمل هو نظير ما تقدم في حديث علي ((ألا نتكل على كتابنا وندع العمل؟)) ، وكما قلت لكم سابقاً هذا سؤال يطرح نفسه ؛ عندما يسمع الإنسان أن أهل الجنة كتبوا وأهل النار كتبوا وأن هذا كله في اللوح المحفوظ فُدر وقضي يأتي هذا السؤال ففيم العمل؟ أو ألا نتكل على القدر؟ أو ألا ندع العمل؟ ((قال رجل ففيم العمل يا رسول الله؟))

فقال صلى الله عليه وسلم : ((إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار)) وهذا فيه تنبيه لما سبق بيانه في حديث عليه الصلاة والسلام ألا وهو: أن العبد ينبغي عليه أن يجاهد نفسه على العمل بعمل أهل الجنة والبعد عن أعمال أهل النار ، ويسأل ربه تبارك وتعالى العون التيسير التوفيق كما جاء في الدعاء الذي علّمه النبي عليه الصلاة والسلام عائشة رضي الله عنها وهو في المسند وغيره قال: ((وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ تَقْضِيهِ لِي خَيْرًا)) ، يسأل الله عز وجل أن يقدر له الخير وأن يكتب له الخير حيث كان ، يرجو الله سبحانه وتعالى يطمع في فضله في الوقت نفسه يجاهدها على الأعمال الصالحات .

الشاهد أن هذا الحديث فيه تقدير داخل في التقدير العام الذي كان كتب في اللوح المحفوظ وهو التقدير الذي قدره الله عز وجل على الخلائق عندما أخرجهم من ظهر أبيهم آدم وقسمهم إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير .

وهذا الحديث في سنده شيء من الكلام لكن هناك شواهد له يتقوى بها ويكون بها صحيحا لغيره ومن شواهد
الحديث الآتي بعده .

قال رحمه الله تعالى :

وقال اسحاق بن راهويه حدثنا بقية بن الوليد أخبرني الزبيدي محمد بن الوليد ع راشد بن سعد عن عبد
الرحمن بن أبي قتادة عن أبيه هشام بن حكيم بن حزام أن رجلاً قال : يا رسول الله أتبتدأ الأعمال أم قد
قُضي القضاء ؟ فقال : ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه
فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ليسروا لعمل أهل الجنة وأهل النار ليسروا لعمل أهل
النار)).

ثم أورد رحمه الله هذا الحديث ((أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أتبتدأ الأعمال
أم قد قُضي القضاء ؟)) معنى قول الرجل في سؤاله ((أتبتدأ الأعمال)) أي هل أن أعمالنا ليست مقدرة وليست
مكتوبة فنفعها نحن ابتداءً دون أن تكتب علينا ودون أن تقدر؟ أي أن الأمر أنف وليس مقدرًا؟ هل الأمر
كذلك؟ «أتبتدئ الأعمال؟» أي هل الأعمال تقع منا ابتداءً دون قضاء مسبق ودون قدر مسبق؟ «أم قد قضي
القضاء؟» أي الأمرين ؟ هل الأعمال التي تقع منا تقع ابتداءً دون أن تُقدر؟ أم هي مقدرة ومقضية علينا ومكتوبة
علينا؟ أي الأمرين الحق والصواب؟ يسأل النبي عليه الصلاة والسلام .

فقال صلى الله عليه وسلم : ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في
كفيه فقال : هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار ، فأهل الجنة ليسروا لعمل أهل الجنة وأهل النار ليسروا لعمل
أهل النار)) فبين عليه الصلاة والسلام أن الأمر قدر وقضي وليس أمرًا أنفًا وليس أمرًا يقع ابتداءً من العباد دون
سبق تقدير وقضاء ، بل الأمر قدر وقضي؛ هذا هو معنى الجواب ومفاده .

قال : ((إن الله لما أخرج ذرية آدم من ظهره أشهدهم على أنفسهم ، ثم أفاض بهم في كفيه فقال : هؤلاء
للجنة وهؤلاء للنار)) هذا في العالم الذي أخرج فيه الناس من ظهر آدم، كما تدل عليه الآية الكريمة والأحاديث
المبينة لمعناها قسمهم الله عز وجل لما أخرجهم من ظهر أبيهم إلى فريقين : قال ((هؤلاء للجنة وبعملها يعملون ،
وهؤلاء للنار وبعملها يعملون)) ؛ أي أن الأمر مقضي ومقدر ومكتوب ، مكتوب على كل إنسان هل هو من
أهل الجنة أو من أهل النار ، ومن كان قُدر له أنه من أهل الجنة فإنه بعملها يعمل ، ومن قُدر له أنه من أهل
النار فإنه بعملها يعمل. والواجب على من عرف هذا الأمر وفهمه من كلام نبينا عليه الصلاة والسلام أن يجاهد
نفسه على تحقيق التوجيه النبوي الكريم الذي مر معنا في حديث علي ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) وهذه

منهج في الباب اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وكلما وقع في نفسك شيء من التكاثر أو التثبط أو التواني أو نحو ذلك فداوها بهذه الكلمة ((اعملوا فكل ميسر لما خلق له)) ؛ «اعملوا» أي جاهد نفسك على العمل لا تتواني ولا تكسل ولا تفتر عن أمور الخير وأبواب البر ، «فكل ميسر لما خلق له» سل الله تبارك وتعالى العون والتيسير والتوفيق .

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .